مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (١٠) العدد (٤) ٢٠٢٦
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (10) No. (4) 2026

أشكال الأنساق الثقافية في رواية الأجيال السورية وتجلياتها في النقد الروائي العربي

د. غدير أحمد يوسف *

(تاريخ الإيداع ١/٨ /٢٠٢٦. قُبِل للنشر في ٢/١٧ /٢٠٢٦)

□ ملخّص □

تعد الأنساق الثقافية من العناصر التي اتسع الحديث عنها في النقد، فراح النقاد يركزون على المحمولات النسقية من البنى الظاهرية والأيديولوجيات المضمرة في سعيهم لمساءلة النص، والكشف لا عن سرّ جمالياته بل عن دور هذه الأنساق في تشكيل الخطاب السردي، والبحث في الظواهر الثقافية الخفية التي تحكمت في إنتاجه ولم تتعامل معها القراءات البنيوية التقليدية.

سيحاول البحث رصد أشكال الأنساق الثقافية التي كشف عنها النقاد الروائيون العرب، وكيف وعى هؤلاء النقاد البنى الرمزية، والنشاطات السياسية والاجتماعية والفكرية التي أنتجت النص في نقدهم الخاص برواية الأجيال السورية، وذلك في ثنائيات تضمنت الأنا والآخر، والرجل والمرأة، والريف والمدينة.

الكلمات المفتاحية: الأنساق الثقافية، النقد الروائي، رواية الأجيال.

* عضو هيئة تدريسية (مدرّس) في قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة طرطوس.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (١٠) العدد (٤) ٢٠٢٦
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (10) No. (4) 2026

Cultural Patterns in Syrian Generational Novels And Their Manifestations in Arab Novel Criticism

***D. Ghadeer Ahmad Youssof**

(Received 8/1 /2026. 17 /2/2026)

□ ABSTRACT□

Cultural patterns are among the elements that have been widely discussed in criticism. Critics have begun to focus on the systemic contents of apparent structures and implicit ideologies in their quest to question the text, and to reveal not the secret of its aesthetics, but rather the role of these patterns in shaping the narrative discourse, and to investigate the hidden cultural phenomena that controlled its production and which traditional structuralist readings did not deal with.

The research will attempt to identify the forms of cultural patterns revealed by Arab novel critics, and how these critics were aware of the symbolic structures, and the political, social and intellectual activities that produced the text in their criticism of the Syrian generational novel, in dualities that included the self and the other, man and woman, and the countryside and the city.

Keywords: Cultural Patterns, Novel Criticism, Generational Novel.

*Faculty member (university teacher) in Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Tartous university

مادة البحث

ظل النقد الأدبي فترة من الزمن تعليقاً شخصياً أو رأياً انطباعياً حول النص الأدبي، ثم التفت إلى خارج النص يمتح منه ما يعينه على تحليل هذا النص، فغدا النص وثيقة تاريخية أو نفسية أو اجتماعية، لكن القرن العشرين جاء مشبعاً بمحمولاتٍ لسانية وشكلية ونصية، أفرزتها محاضرات *سوسير* في الألسنية العامة، وتابعها الشكلانيون الروس وعلماء حلقة *براغ* اللغوية، فانتقل التركيز في التحليل على النص نفسه، وعلى أدبيته، أي ما يجعل منه عملاً أدبياً، على حد تعبير جاكبسون. لكن، قبل أفول القرن العشرين، ومع اقتراب نهايته، ظهرت حركة دعت إلى الخروج من عقال النص، ومن الالتزام الصارم به لاستجلاء مكامن جمالياته، والانفتاح على الأنساق الثقافية التي يخبئها، تلك التي إن تُكشَف في النص تَكشِف عن العلاقة المخبوءة بين تلك الأنساق وإنتاجه.

ورواية الأجيال تطوي في صفحاتها مخزوناً ثقافياً ثراً استدعى النقد الروائي لاستجلاء تلك المادة الثقافية بحمولاتها السياسية والاجتماعية، وعلاقتها بالنص المُنتَج.

ومن هنا انطلق البحث من التعريف بإيجازٍ برواية الأجيال، وذكر روايات الأجيال السورية المتناولة فيه، تلك التي كوّنت مادة للنقد الروائي العربي، ليأتي بعدها على الأنساق الثقافية وأشكالها كما تجلت في النقد الروائي العربي الخاص برواية الأجيال في سورية.

أهمية البحث:

تتضمن رواية الأجيال خطاً تاريخياً واسع المدى، وتضم أجيالاً متعاقبة، فتشكل بذلك مادة خصبة للنقاد الباحثين في الثقافات المتنوعة لتلك الأجيال، وتأتي أهمية هذا البحث من ناحيتين: الأولى: جدة النقد الثقافي الذي يعد من أحدث المناهج النقدية العالمية في دراسة النصوص وربطها بالسياق والتجربة والتكوين الاجتماعي والإشارات والعلامات والمكونات الثقافية الأخرى، والثانية: تنوع الأنساق الحاملة لتلك الثقافات في رواية امتدت أجيالاً لتحث فضول النقد كي يفككها ويكشف علاقاتها والتأثيرات الثقافية الكامنة وراء النص.

منهج البحث:

يحتاج البحث إلى منهج يرصد الأبعاد الثقافية للنص وكيفية وعي النقاد العرب لها في رواية الأجيال السورية، وسيكون المنهج الوصفي الأكثر قدرةً على الكشف عن تلك الأنساق، لذلك سيلجأ إليه البحث مشفوعاً بالتحليل والنقد الثقافي ليفكك مكنونات النص ويُظهر تجليها في النقد الروائي العربي لرواية الأجيال السورية.

الدراسات السابقة:

ظل النقد الروائي العربي يفتقر إلى كتاب يتحدث عن رواية الأجيال، حتى ظهور كتاب مريم جبر فريحات عام ٢٠٠٥ والمعنون بـ "التجليات الملحمية في رواية الأجيال العربية"، وهي محاولة منها لتجلية ما تمتلئ به النصوص الروائية من إحالات دالة على نزوع كاتبها نحو إبداع ملحمي. لكن الكلام عن الأنساق الثقافية كثُر حديثاً، فكان بحث سليمة سوادي زغير عام ٢٠٢٠ المعنون بـ "النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية: ثلاثية أحلام مستغانمي أنموذجاً" مثالاً لتلك الأنساق، لكنه خص بالدراسة ثلاثية أحلام مستغانمي. ورسالة الماجستير "الأنساق الثقافية في ديوان (المتغابي) لعثمان لوصيف" للطالبتين: وئام محياوي وخلود العرجاني عام ٢٠٢٣، وأيضاً خص البحث الديوان بالتحليل. ويصل الافتقار إلى درجة الانعدام إذا ما وصلنا إلى دراسة الأنساق الثقافية التي رصدها النقاد العرب في رواية الأجيال السورية، وهذا ما شكّل دافعاً للباحث كي يخوض في هذا المجال.

التعريف برواية الأجيال

كثرت الأقنعة الدالة على هذا المدلول الذي يتناول هذا النوع من الروايات مثل: رواية الأزمان، والرواية النهرية أو رواية النهر، ورواية العائلة، ورواية الحقبة، والرواية الانسيابية، ورواية الأجيال. وقد وقع اختيار الباحث على الأخير لكونه الأعم والأشمل والأكثر استخداماً من النقاد من ناحية، ولأن روايته تتناول، من خلال الأجيال المتعاقبة، فترة انتقال مجتمع من ناحية ثانية.

لم يكن لأحد من النقاد تعريف خاص برواية الأجيال، لكن بعضهم قاربها من نواحٍ عدة، أهمها ما جاء به نجيب ناجي[1]

١. قربها من جانب الرواية التاريخية.
٢. التتابع الزمني، والتسلسل التاريخي للأحداث.
٣. الزمن من العناصر الأساسية، ومساره يحدد مسار الأجيال.
٤. إن كاتب الأجيال ينتمي هو نفسه إلى عالم الأمس وعالم اليوم، ويسجل بوصفه مؤرخاً، ويصطنع السرد الموضوعي.
٥. تتأثر قصة الأجيال بالسيرة الذاتية لصاحبها، لكن طبيعتها تفرض عليه أن يصب الخبرة والسيرة الذاتية في الصيغة الغيرية، وأن يوزعها على أدوار.
٦. إن الالتزام بالتسلسل الزمني للأحداث يعطي التطور الحاصل شيئاً من الحتمية، غالباً ما يسعى الكاتب إلى إبرازها، حتى يجلو الحاضر الذي يهدف إليه في النهاية.
٧. يتقيد كاتب رواية الأجيال بالمكان تقيده بالزمان، فعليه أن يصور البيئة، وأن يبرز الأبعاد المكانية والمادية، وأن يعرض المهاد الاجتماعي والوراثي والنفسي لتطور الأحداث والأجيال.
٨. في الوقت الذي يعرض فيه كاتب الأجيال لتطور تاريخي بعينه، فهو يفسره في النهاية بمنظوره الخاص، ويقصد، عن وعي أو غير وعي، إلى تصوير العام عن طريق الخاص.

وهذه النواحي هي الأشمل في التعريفات كلها التي تناولت هذا المفهوم وأقنعته.

روايات الأجيال السورية التي تناولها النقد العربي

لم يتناول النقد الروائي العربي روايات الأجيال السورية كاملة، ولكنّ روايات أجيال سورية بعينها توجه نحوها النقد الروائي العربي، وهي:

١. "مدارات الشرق": نبيل سليمان.
٢. "الطريق إلى الشمس": عبد الكريم ناصيف.
٣. "التحولات": خيري الذهبي.
٤. "في بلاد الشام": ناديا خوست.
٥. "العصاة": صدقي إسماعيل.
٦. "رياح كانون": نهاد سيريس.

[1] . ينظر: فريحات، مريم جبر: "التجليات الملحمية في رواية الأجيال العربية". وزارة الثقافة، عمّان، ط١ ـ ٢٠٠٥، ص٤٢.

أشكال الأنساق الثقافية في رواية الأجيال السورية وتجلياتها في النقد الروائي العربي:

أ.الأنا / الآخر:

تحتضن هاتان الكلمتان إشكالية كبيرة وعميقة تنطلق من أن كلاً منهما يختزن ضمن النص السردي سؤالاً مؤداه: من هو؟ فهل الأنا: العربي / الذات / الشرق / النحن ...؟ وهل الآخر: الغربي / الصهيوني / الاستعمار...؟

بدايةً كان اللقاء في المشهد النقدي العربي مع ما سماه *أسعد فخري* "الآخر الأقوامي"، وقصد به الشخصية غير العربية التي تتموضع في الأعماق الأدبية، وذلك في دراسته للآخر الأرمني في الرواية العربية. فهو يرى أن هناك سمتين تميزان الأرمني من الشخصيات الأقوامية الأخرى التي تغلغلت في الرواية العربية وهما: "ذلك التجلي التاريخي الذي أحيط بها، فلقد استأثرت باهتمام الكثير من المؤلفات التاريخية التي أفصحت عن العلاقة العميقة التي تربط الأرمن بالعرب، مؤكداً وشائج المحبة والتعاطف فيما بينهم. أما السمة الأخرى لهذا التميز الأرمني.. فهي أن الأرمن لم يعيشوا حالة صراع مع العرب عبر التاريخ، تتعلق بحقوق لهم بأرض عربية، أو احتكاك ومساس على حدود، مفترضة أو طبيعية"[٢]. ويتناول *أسعد فخري* شخصية الآخر الأرمني في روايات عربية منها روايتا الأجيال "رياح الشمال" في جزأيها "سوق الصغير" و"١٩١٧"، ورواية "مدارات الشرق" بأجزائها الأربعة. فعلى المستوى السياسي يرى أن مدارات الشرق في بنات نعشها باينت بين الضياع العربي والمغامرة الأرمنية وهو ما جعلها متناغمة بين السياسة والتاريخ، على أن الناقد لم يبين الكيفية التي رأى فيها رؤيته تلك. أما السرد في "رياح الشمال"، وبعد التطور الذي حصل له في الجزء الثاني، لم يستطع أن يتخلى عن جعل شخصيتي "آرتين وسانتوس" "كصورتين بلا إيقاع لمشاركة الآخر الأرمني في فترة تاريخية اتسمت بالنهوض الوطني ومقاومة الاحتلالات والبحث عن منافذ للاستقلال، شخصيتان للآخر الذي لم يتناظر وسياق فعله كوقائع وأحداث وشواهد. حيث لم تبدُ لنا أية محاولة من الروائي، لجعل النسق السياسي والتاريخي في رواية "رياح الشمال" بجزأيها وآلية تمظهر الشخصيات فيها متوازناً وفعلها الذي رسمه التاريخ المدوّن والشفاهي للروائي"[٣]. ففي سرده وحواره حاول النص أن يعطي الآخر الأرمني الصورة السياسية الصحيحة التي أداها في النضال، لكنه لم يفلح برأي الناقد في رسم الصورة الجلية له، وأشار إلى أن التاريخ المدوّن والشفاهي قدم للكاتب الكثير لكي يوظفه في روايته لكنه لم يوفَّق في ذلك، فهل كان الباحث ينتظر من النص أن يكرر ما قاله التاريخ الرسمي؟ وهل يمكن للرواية أن تكون تاريخاً أساساً؟ إن زج التاريخ في النظام التخييلي للرواية يلغي المدوّن والشفاهي الذي تحدث عنه الناقد، ويبني نصه الخاص، لكنّ هذا النظام التخييلي مبنيّ أساساً على وظيفة نسقية تكشف النسق الأدبي المهيمن "وهو ذلك التصوّر السائد عن أن الأدبي هو الخطاب الذي قررته المؤسسة الثقافية حسب ما توارثته من مواصفات بلاغية وجمالية قديمة وحديثة، وبهذه المواصفات يتم الفرز والتصنيف، وتتم عمليات استبعاد كثيرة، حيث هناك فنون راقية، ومن تحتها ودونها تأتي أشياء لا تمنحها المؤسسة صفة الرقي"[٤].

---

[٢]. فخري، أسعد: "أنين السرو ـ تجليات الآخر الأرمني في الرواية العربية". دار الحوار ـ اللاذقية، ونادي الشبيبة السورية ـ حلب، ط١، ١٩٩٥، ص١١.

[٣]. المصدر نفسه: ص٢٠.

[٤]. الغذامي، عبد الله: "النقد الثقافي ـ قراءة في الأنساق الثقافية العربية". المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٥، ص٥٧.

وتتعدد صور الآخر في روايةٍ ما بحسب حاجة الروائي إليها، فقد تكون هرباً خيالياً من واقع النحن، وقد تنبع من تناقض حضاري أو سياسي بين أمته (أمة النحن) وأمة الآخر، وقد تعكس حالة العداء بين شعب النحن وشعب الآخر[٥]. وبين الغرب والشرق هناك اختلافات مطروحة على صفحات "حوار الحضارات"، هذه الاختلافات وجدت طرقاً لها في رواية الأجيال السورية، وهذه الطرق رصدها النقاد على اختلاف مذاهبهم وأيديولوجياتهم.

التاريخ يعيد نفسه عند *عبد الرزاق عيد* في ما قرأه من لوحة الشرق والغرب في رواية "مدارات الشرق" في جزأيها الأولين

(الأشرعة) و (بنات نعش)، إنها لحظة التقاطع بين الشرق العربي والغرب الأوروبي التي تتكرر تكراراً مأساوياً فتعيد في ذهنه "تلك اللحظة الأولى، التي حشد فيها الغرب المتمدن جداً أساطيله لمحاربة مشروع محمد علي التحرري، وبما يخدم السلطنة العثمانية {...} فالحدث السياسي اليوم في الخليج، حيث الأساطيل الأمريكية والغربية، ليست إلا تعبيراً مكثفاً عن زمن دائري، يبدأ بتدمير الطموح العربي في دخول التاريخ، وينتهي إلى اللحظة ذاتها في منع العرب من دخول التاريخ، واعتقالهم في العصور الوسطى عبر النموذج المشايخي العشائري النفطي الذين أتوا بأساطيلهم للحيلولة دون الخروج من اللحظة القروسطية"[٦]. هذه كانت نظرة الباحث إلى العلاقة بين الشرق والغرب، وفي هذا القول يمكن للمرء أن يلتمس نقاطاً معينة:

١. في قوله "المتمدن" للآخر/ الغرب الأوروبي يكون قد قال عكسياً للأنا / النحن / الشرق العربي الذين ما زالوا في عرفه يعيشون حالة البداوة التي تفتقر إلى المدنية.

٢. محاولة الغرب الإبقاء على حالة البداوة هذه، أي الإبقاء من خلالها على سيطرة الآخر/ الغرب على النحن / العربي، وهو ما أراده الغرب ليس في الوقت السابق فقط وإنما كان وما يزال يفرض هذه الحال. وقد أتى الفرض بنماذج عدّة، اختار الناقد منها التدخل العسكري المباشر من خلال الأساطيل التي دخلت سواحل مصر في عهد *محمد علي* إلى الأساطيل التي دخلت سواحل الخليج اليوم.

٣. رسم الناقد من خلال قوله هذا حالة الصراع بين الأنا / النحن / الشرق العربي، والآخر/ الغرب الأوروبي، وهو صراع لم يرسمه للحظة آنية أو فترة قصيرة، ولكنه كان صراعاً قديماً ومستمراً إلى حد قوله "اليوم".

رصد "فاضل الربيعي" (العراق) صورة الغرب المؤنث في رواية "فياض" "لخيري الذهبي"، إذ حلل العلاقة بين الشرق والغرب بعدد من الأمور بدأها بعقم الغرب وسعيه إلى تبني الشرق من خلال إخفاق "ماتيلد" في الإنجاب، ومحاولة تبني "فياض" الشيزري، ولطالما كان الغرب مذكراً، لكن العربي يحاول فرض ذكورته وعدم القبول بفرضية الآخر القوي، وتصير العلاقة إلى علاقة تحدٍّ، و"مادامت العلاقة بين الشرق والغرب هي بالضرورة علاقة مجنسة لأنها علاقة قوة وتحدٍّ، ولأن كلام الطرفين الداخلين فيها يتصورها علاقة فعل وانفعال وإيجاب وسلب، فمن المحال أن تتسع لمبدأين مذكرين. وقد كان المنطق يقضي بأنه يكفي أن يثبت أحد الطرفين أنه هو الذكر، حتى يكون قد قام البرهان على أنوثة الطرف الآخر"[٧]. إلا أن الرواية تنتهي إلى مسرحة الأحداث التاريخية ومحاولة حل الصراع واستبدال الحوار العقيم به، ولكن ذلك لم يؤت أكله. فقد حاول *روجيه* أن يجعل "فياضاً" غربياً حتى في تاريخه،

---

[٥]. ينظر: عبود، عبده: "الأدب المقارن ـ مدخل نظري ودراسات تطبيقية". منشورات جامعة البعث ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، حمص، ط١ ـ ١٩٩١. ص٣٧٦ ـ ٣٧٧.

[٦]. باروت، محمد جمال وعيد، عبد الرزاق: "الرواية والتاريخ ـ دراسة في مدارات الشرق". دار الحوار ـ اللاذقية، ط١ ـ ١٩٩١. ص٦٩.

[٧]. طرابيشي، جورج: "شرق وغرب، رجولة وأنوثة ـ دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية". دار الطليعة ـ بيروت، ط٤، ١٩٩٧، ص١٥.

فيجعل، من ثم، تاريخه تاريخ وصوله إلى الغرب، "التاريخ السياحي الذي لم يتسن له أن يحياه أو يعيشه من قبل، على أنه هو التاريخ، بهذا المعنى لم يكن الاستشراق عملاً غربياً تاماً ولخدمة الغرب نفسه، وإنما كان عملية تعريف للشرق بنفسه على نحو لا يستطيع معه إلا قبول هذا التفهم دون سواه"[٨]. بهذا الفهم يصبح الاستشراق عولمةً وغسلاً دماغياً لم ينجح في معظمه مع فياض لكنه مازال يؤثر فيه حتى ليهزه، إذ هو لم يتمكن من أن يكون غربياً وينسى أصله العربي، ولا كان عربياً في معظم حياته، "لقد ظلت معرفة فياض بنفسه وبعالم الشرق محكومة بشرطها الاستشراقي، فهو لا يعرف حسن الخراط ولا حزب الاستقلال ولا يتذوق طعام السوريين ولكنه مع ذلك يعرف هارون الرشيد وعماد الدين وصلاح الدين ونور الدين .."[٩]. لقد اعتمد الباحث على مهمة الاستشراق في رواية "فياض"، هذه المهمة التي حرمت الأنا / الشرق / العربي من ممارسة النضال ممثلاً بفياض ضد الآخر / الغربي، ومن معرفة ذاته العربية حتى رآها في تاريخه البعيد.

وبطريقة علم النفس ينظر *محمد جمال باروت* (سورية) إلى "هشام" "الذي حولته القرية السياسية المرة والأحلام المنكوسة وعذابات المعتقل إلى رجل دون رجولة يحس بالعناية الفيزيولوجية والروحية، لكن الرواية تسير بادعاءات التجنيس الحضاري ما بين الشرق والغرب إلى الكارثة"[١٠]. إن النقاد معظمَهم يرون تلك العلاقة بين الشرق والغرب محكومة بقدرية واحدة هي "الكارثة"، على حد تعبير *باروت*، فكل جزء من أجزاء "التحولات" ينتهي إلى هذه القاعدة على الرغم من محاولة طرح الحوار العقلي.

ويؤكد *عمر شبانة* (فلسطين) هذه النقطة، فيصف محاولة طرح عملية الحوار ببناء الجسر، لكن الصفعة القاتمة كانت قاضية لابنته ومحطمة لذلك الجسر "الذي يربط الشرق بالغرب، هذا الجسر الذي يشكّل محوراً أساساً في الرواية، فبعد أن كان الغرب خلاصاً لـ "هشام" من لعنة الوطن الذي طرده وطارده بوثيقة "أنا مرة" التي وقعها في الاعتقال، ها هو كنز الجوقداريين يغدو حلماً بالخلاص من الغرب وآثاره"[١١]. هي عملية ضدية تؤدي إلى ما سماه شبانة "التشوه" على مستوى علاقة *هشام* بهذا الغرب، إنه يهرب إلى الغرب ويهرب من الغرب، وهذا هو النسق الظاهر، لكنّ أحداً من النقاد لم ينظر في مستوى الذهاب إلى الغرب، وهو النسق الذي أضمرته الرواية، ففياض لم يهرب وإنما تبناه الغرب، وعملية التبني هذه تحتضن فياض من دون إرادة فيما تحتضن هشاماً بإرادته، ولكنّ الجامع بين الطرفين أن كليهما يمثّل الرجل الذي فقد رجولته أمام الغرب. إن "الأنساق الثقافية هي جوهر النقد الثقافي، فهذا الأخير يعتمد كلياً . في عملية استنطاق النصوص من أجل الوصول إلى الهدف المعلن . على الأنساق المضمرة قبل المعلنة (الظاهرة)، لأن كل نص له حمولات معرفية وثقافية لا بد من استخراجها من خلال التعدي من البنية السطحية نحو البنية العميقة للمنجز الإبداعي"[١٢].

وينتقل الآخر عند *نبيل سليمان* (سوريا) ليصبح آخر سويسرياً في الجزء الرابع من "مدارات الشرق" "الشقائق"، وهذا الانتقال جعل الجغرافيا تتبدل إلى جنوب / شمال بدلاً من شرق / غرب ولكن الفاعلية هنا برأي

---

[٨]. الربيعي، فاضل: "صورة الغرب (المؤنث) في الرواية العربية". سلسلة أدباء مكرمون (٢٨) ـ الروائي خيري الذهبي، اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق، ط١، ٢٠٠٦، ص١١٩ ـ ١٢٠.

[٩]. المصدر نفسه: ص١٦٣.

[١٠]. باروت، محمد جمال: "رواية البيئة الشامية الضائعة والمستعادة". سلسلة أدباء مكرمون (٢٨) ـ الروائي خيري الذهبي، اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق، ط١، ٢٠٠٦، ص١٢٤.

[١١]. شبانة، عمر: "بين الواقع والأسطورة يسقط الحاضر". سلسلة أدباء مكرمون (٢٨) ـ الروائي خيري الذهبي، اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق، ط١، ٢٠٠٦، ص٢٠٠.

[١٢]. محياوي، وئام والعرجاني، خلود: "الأنساق الثقافية في ديوان المتغابي لعثمان لوصيف". رسالة ماجستير بإشراف الدكتور عبد القادر رحيم، جامعة محمد حيضر بسكرة، ٢٠٢٢ ـ ٢٠٢٣، ص١٧.

سليمان كانت بمساهمة المدونة، على حد تعبيره، "في الانفتاح على مرجعيات ثقافية . حضارية أخرى تتجاوز المركزية الفرنسية الإنكليزية، وتتجاوز مركزية الذات، لقد رأينا فعل الحرب في تلك الروايات، وصورة الآخر المشبوحة بين الجحيم والنعيم، وصورة الذات الموقوفة على الجحيم، وفعل السيرية في بناء الرواية، وسبب التواجد في موطن الآخر (العمل و / أو الفرار من الحرب والقمع) وتواجد الآخر في موطن الذات"[١٣]. فمهما تغير الآخر وتحولت مركزيته يجزم *نبيل سليمان* أن الصورة لن تتغير إنها لعنة وأد النفس المغموسة بالقمع والحرب في الشرق، ولعنة الحلم الوردي الذي ينتهي، غالباً، بالانكسار في روايات الأجيال.

وبالانتقال من الآخر / الإنساني إلى الآخر / الثقافي يجد المرء *محمد صابر العبيد وسوسن البياتي* يقصران هذا الآخر على مفاهيم ثقافية تشيعها الرواية في تضاعيفها، فكشفت عن وعي جديد بالهيمنة الاستعمارية ولكن بأسلوب متطور، وتطرح، من ثم، "أنموذجاً مختلفاً لعلاقة الأنا بالآخر في ضوء المفاهيم الثقافية التي تقترح رؤية جديدة للتفاهم والفهم والإدراك، على النحو الذي يتيح فرصة أخرى للنظر والمعاينة والتصور"[١٤]. والذي يتضح من هذا المقبوس أن الآخر المتَكَلَّم عنه هنا هو الآخر الاستعماري بحلة جديدة هي المفاهيم الثقافية التي تخفي بين سطورها غزواً جديداً، وكان من المفترض أن يذكّر الباحثان القارئ بذلك ولاسيما أن ما ذكراه قبلاً من تنوع الآخر يستبعد الآخر / العربي والآخر / الصهيوني من هذه الدائرة ويحصرها بالآخر الغربي.

لقد كشف النقد العربي عن مكنونات الأنا والآخر في "رواية الأجيال" السورية، وإن قصَر بعضهم نقده على شكل واحد للأنا / الذات هي الأنا / العربي مع أن الضمائر تعطي الحق لأيٍّ كان كي يصبح أنا، ويشكّل وجهة نظر خاصة به، فيما تنوعت أشكال الآخر ليكون الأرمني والغربي، والشمالي برؤية بعضهم (نبيل سليمان مثلاً)، ويصل نقاد إلى عدّ القارئ آخر منطلقاً من أن الأنا هي ذات الراوي أو سرده.

ب. الرجل / المرأة:

برز الرجل على أنه الأكثر حضوراً في المشهد الروائي العربي والغربي، لكن لم يكن ذلك يعني الغياب الكامل والمطلق للمرأة عن هذا المشهد، فقد كان لكلٍّ دور فيه، وتعددت صور كل منهما في "رواية الأجيال" أيضاً، ومن الأجدى هنا الانطلاق من السؤال: كيف نظر النقاد العرب إلى العلاقة بين الرجل والمرأة في "رواية الأجيال" في سوريا؟

جعل *حسام الخطيب* (فلسطين) العلاقة بين المرأة والرجل في رواية "العصاة" لصدقي إسماعيل الحامل الأبرز للتطورات الاجتماعية في مجتمع الرواية "وقد اختار الشخصيات النسائية عامة لتصوير تطور الأفكار الاجتماعية. وهذا حق لأن التطورات الاجتماعية الحاسمة كانت ملقاة على عاتق المرأة قبل الرجل"[١٥]، وهو يقر بأن الأفكار والتصرفات التي قامت بها الشخصيات النسائية البارزة أعطت صورة عن هذا التطور، ثم بعد ذلك يرى أن التطور الاجتماعي يسير بمعزل عن التطور السياسي، فهل أعطى التطور الاجتماعي للمرأة والتطور السياسي للرجل؟ اقتصرت العلاقة بين الرجل والمرأة عند حسام الخطيب على هذا الحد فقط ومن غير تفصيل، وهو أمر لا يمكن أن يكون شاملاً بالنسبة إلى تلك العلاقة.

وضمن عنوان "تجنيس العلاقات" لا يخرج *عبد الله أبو هيف* على إطار التغيير الطبقي أو الاجتماعي في الموقف من المرأة، لكنه يشير إلى أن للعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة دوراً في مواقف الرواية، وينتهي إلى أن

[١٣]. سليمان، نبيل: "جماليات وشواغل روائية". اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق، ط١، ٢٠٠٣، ١٣٢.
[١٤]. العبيد، محمد صابر والبياتي، سوسن: "جماليات التشكيل الروائي". دار الحوار ـ اللاذقية، ط١، ٢٠٠٨، ص٩٨.
[١٥]. الخطيب، حسام: "سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية". اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق، ط١، ١٩٧٤، ص١٤٢.

"المبنى الرمزي للعلاقة بين الأنوثة والذكورة في "مدارات الشرق" يشير إلى طوابع طبقية واجتماعية، كما في تفسير علاقة سليم أفندي البسمة بخديجة التكلي، أو في تفسير العلاقة الجنسية المخذولة بين عمر التكلي والست زهرة"[١٦]. قد يكون للعلاقة الجنسية دور في صور العلاقة بين الرجل والمرأة، لكن حصر الأخيرة بالعلاقة الجنسية إجحاف لها وإن كانت الغالبة. قد تختلف المرأة عن الرجل جسداً وشكلاً ولكن هل تختلف عنه في عقلها وفكرها؟ . يسأل الغذامي . فـ "تقول الثقافة: نعم، ولكن بالمعنى السلبي، فالرجل عقل والمرأة جسد، هذا ما تعلن عنه كتابات الفحول مثل سقراط وأفلاطون وداروين و..."[١٧].

ويظهر عنوان الكتاب النقدي لصاحبه *محمد قرانيا* "الستائر المخملية . ملامح الأنثى في الرواية السورية حتى عام ٢٠٠٠ أن المرأة هي الموضوع الذي يحل أولاً، ويتنبأ المرء من العنوان أنه سيكون للعلاقة بين الرجل والمرأة شأن في الكتاب، ولكن الذي يحصل خلافٌ لذلك، فهو لم يصرح بعنوان واضح عن هذه العلاقة لكن المرء يلمس ملامح لهذه العلاقة بين سطور النقد؛ فالباحث يرى أن "شخصية "شمس" المحورية في ثلاثية "الطريق إلى الشمس" لـ "عبد الكريم ناصيف" ارتبطت بها أحداث الرواية، فأثّرت عاطفياً في زوجها، وظل طوال حياته أسير جمالها وحيويتها، كما أثّرت في الوسط الاجتماعي الأنثوي (الحموي) بسلوكها وسيرتها، والأهم من ذلك تأثيرها {..} في ابنها الطبيب "الأخضر" العائد من فرنسا، ومنعه من الاقتران بصديقته الفرنسية "جانيت" التي لحقت به إلى دمشق"[١٨]. إنه الأسر الأنثوي للرجل الزوج والرجل الابن، فالمرأة، من ثم، هي المسيطر وهي محور العلاقة الثنائية.

وبلغت الأنثى في رواية "أعاصير في بلاد الشام" *لناديا خوست* مبلغ الرمز الذي يُلمِعُ بصبوة *قيس*، كما يراه *نبيل سليمان*، محاولاً استعادة قصة "قيس وليلى"، لكنّ هذا الترميز في رأي *سليمان* قد بلغ "في النهاية مبلغ الفجاجة حين التقى مصادفة ليلى الطالبة في جامعة دمشق {...} وسيضع قيس صورة ليلى في جيبه وهو يعبر منظمات وبلداناً ونساءً، فتصير تميمته وحلمه ومشروعه ومثله الذي لا يمكن أن يفجع به، وإن كان قد تزوج وأنجب"[١٩]. أدرج *نبيل سليمان* في معرض حديثه هذا كلمات الرواية عن دمشق وليلى ومكانتهما في قلبه، ولم يصرّح هل ليلى تمثل دمشق؟ فهما معاً الصبا، وليلى روح ما أحب قيس في دمشق، وتبقى العلاقة بين الرجل والأنثى هي علاقة تستبد بها الأنثى، فهي تشغل الرجل حتى بعد زواجه وإنجابه.

وعلى حين لم يعطِ *حسن حميد* (فلسطين) العلاقة بين الرجل والمرأة تلك الأهمية، إذ قام بتعداد الشخصيات الذكورية والشخصيات الأنثوية في رواية "حب في بلاد الشام" *لناديا خوست*، يجعل عمر شبانة للكاتبة صفة "المرأة" قائلاً "هنا تتدخل الكاتبة / المرأة لتتساءل ما إذا كانت زوجة المقاتل قد خافت عليه عندما ودعته في ذلك اليوم أم كان غضبها أكبر من ذلك.."[٢٠]. ولم تكن تلك التسمية بقصد دراسة العلاقة بين الرجل والمرأة، سوى أنه أراد أن يتحدث عن المرأة المقاتلة فيما كتبت الروائية، فما كان ذكر المرأة إلا لأجل ذلك الغرض. ويضع عبد الرحمن عمار (سورية) العلاقة بين الرجل والمرأة في أسلوب ناديا خوست موضع التناقض مع أساليب الكثيرات من الروائيات

---

[١٦]. أبو هيف، عبد الله: "الجنس الحائر، أزمة الذات في الرواية العربية". رياض الريس للكتب والنشر ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٣، ص١١٦.

[١٧]. الغذامي، عبد الله: "المرأة واللغة". المركز الثقافي العربي ـ بيروت / الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٦، ص٩ ـ ١٠.

[١٨]. قرانيا، محمد: "الستائر المخملية ملامح الأنثى في الرواية السورية حتى عام"٢٠٠٠". اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق، ط١، ٢٠٠٤، ص٧٩ ـ ٨٠.

[١٩]. سليمان، نبيل: "أسرار التخييل الروائي". اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق، ط١، ٢٠٠٥، ص١٨٦ ـ ١٨٧.

[٢٠]. شبانة، عمر: "أعاصير في بلاد الشام ـ رواية تاريخية وثائقية عن الحياة السياسية والاجتماعية". سلسلة أدباء مكرمون (٢١). الدكتورة ناديا خوست، اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق، ط١ ـ ٢٠٠٥، ص١٠٤.

اللواتي يصورن الرجل بالإنسان الظالم الذي جل همه تشويه جسد المرأة "أما ناديا خوست فقد كانت تضع الرجل والمرأة في كفتي ميزان إيجابيتين ومتعادلتين.. عند ناديا هناك

احترام متبادل بين الرجل والمرأة حتى حدود القداسة. وهناك حرية مطلقة للمرأة، ولكنها الحرية التي لا تخرج على نطاق إرث الكرامة التي أرادت المؤلفة أن يكون إرثاً مصاناً يتوارثه الأجيال؛ جيلاً عن آخر"[٢١]. ويبقى هذا الكلام في إطار العموميات، إذ لا يمكن للمرء أن يحكم على كل النساء في الرواية بهذا الشكل، ولاسيما أن الكاتب نفسه يذكر أن *سعاد* عذبت في سلوكها مع *حمدان* وتمنى الناقد على الروائية ألا تكون قد فعلت ذلك، وهذا نموذج واحد فقط ذكره الباحث.

وتتجلى علاقة الرجل بالمرأة في رواية "الطريق إلى الشمس" *لعبد الكريم ناصيف*، وكما يصورها *خليل الموسى*، في إطار العلاقة التفاعلية لشخصية *عزيز* مع الشخصيات الأنثوية في الرواية، "فمن المفترض أن تتقابل بطولة عزيز أمام السلطة العثمانية بفحولته أمام الأنثى، ولاسيما أنه كان يمتلك الجمال الأخاذ والسحر الفعال والقوة البدنية والرجولة الكاملة، وكان محبوباً من الأنثى.. ولكن الملفت للنظر أن بطولته النضالية تتقابل مع بطولة سلوكية أخلاقية، فعزيز يبتعد عن الإناث الأربع اللواتي تعرّضن له غير مرة في الرواية، وهنّ سعدى وسكينة وعليا ومريم، وكان يفرّ من طريقهنّ وكأنه هو الملاحق"[٢٢]. يأتي تأكيد الباحث *خليل الموسى* هنا على مركزية *عزيز* / الرجل من ناحيتين: أولاً هو الشخصية الجاذبة التي تحاول المرأة الحصول عليها لكنها لا تفلح، وثانياً: هو الشخصية الأخلاقية النافرة التي تبتعد عن المرأة. وهذه العملية تحول المرأة شخصية تسحق شخصيتها أمام الرجل، حتى تصل إلى حد التوسلات والعبودية عند إحدى الشخصيات (عليا)، ما يصنفها في حدود التمزق.

وينفرد *نضال الصالح* في توطين شخصيات الرجال والنساء الموطن المناسب لها في النص، بوصفها بنية من البنى النصية وطرفاً من النسيج النصي، *فناديا خوست* تعطي الشخصيات النسوية صفات خلابة يلحظها *نضال الصالح* في نقده للجزء الثاني من الرباعية "أعاصير في بلاد الشام"، ويصل إلى أنه "مهما يكن من أمر الشخصيات جميعاً، الذكورية والنسوية، تتسم بثباتها الانفعالي من بداية الرواية إلى نهايتها، فإن ثمة سمات مختلفة تميز وسائل بناء الروائية لها، كإلحاحها اللافت للنظر على الوصف الخارجي لها، وإنتاجها ما يشبه اللازمة لعدد منها، التي تتردد بنصها أحياناً بين موقع وآخر في الرواية"[٢٣]. وعنده كما عند الروائية يتساوى الرجل والمرأة، غالباً، في صفات النبل والجمال، فتدخل في تشكيل الجمال النصي الروائي.

وكانت الشخصيات النسائية، في نقد *زهير محمود عبيدات* لرواية "العصاة" *لصدقي إسماعيل*، المنطلق في سياسة الرفض، ويعد أنه من مظاهر القوة "أن جاءت الثورة من الأنثى . سعاد . حين صارحت والدها برغبتها في الزواج من *يونس* الشاب الفقير فلم يصدق.. وهددها بالقتل بعد أن أصرت على تلويث هيبة الأسرة بمثل هذا الرجل الفقير، ورفضت عطف والدها، وهو موقف فيه تحدٍّ"[٢٤]. تحمل كلمات الباحث موقف رفض الأنثى لتقاليد الرجل والمجتمع، هي رفض لتلك اللعنة التي فرضها القدر على الأنثى في المجتمع الذكوري، لكنها استجابة للعنة العشق، فتحديها الأول هو تحدٍّ للرجل الأب، والعقلية التي يحملها والمتشظية أمام رغبتها الصارمة في الزواج الذي تريده حتى ولو جلب لوثة الفقر إلى العائلة الغنية، والرجل والقدر سيخضع لهذه الإرادة عندما تقول الأنثى كلمتها. ويقرر الناقد

[٢١]. ينظر: عمار، عبد الرحمن: "بنية التشابه بين المؤلف وشخصياته الروائية". اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق، ط١ ـ ٢٠٠٧، ص١٥٠.
[٢٢]. الموسى، خليل: "ملامح الرواية العربية في سورية". اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق، ط١، ٢٠٠٦، ص١٠١.
[٢٣]. الصالح، نضال: "من التخييل إلى التأويل ـ دراسات في الرواية العربية ونقدها". نون ٤ للنشر والطباعة ـ حلب، ط١ ـ ٢٠٠٧، ص٤٩.
[٢٤]. عبيدات، زهير محمود: "رواية الأجيال في السرد الروائي العربي الحديث". دار أزمنة ـ عمّان، ط١ـ ٢٠١٠، ص١٢٧.

في النهاية أن المرأة قد مثّلت "التغيّر الاجتماعي الذي رسمه الكاتب في غاية تحرره الذي يوحي بالمصير المؤلم الذي ارتكست إليه نماذج من المرأة حين انفتحت انفتاحاً غير واعٍ، فقد تألم *عدنان* عندما شاهد امرأة في أحد المقاهي، فنعى فيها مصيرها الذي آلت إليه"[٢٥]. ولكن كيف يقرر أن هذا الانفتاح غير واعٍ؟ ولماذا يقرر ذلك؟ أكان معياره في ذلك رؤية *عدنان* امرأة في المقهى؟ وهل يقيس ذلك على كل النساء؟ لا يكتسب الباحث الأحقية في الحكم والقياس من موقف واحد، ولا يمثل هذا الموقف موقف المرأة المتحررة.

يبقى النص هو الحكم، "ولكي يكون النص عتقاً للأشياء (ولنا أيضاً) لا بد أن ننطلق من الخطاب نفسه لا من خارجه أو من حدثٍ يفترض فيه الأسبقية على الخطاب، وهذا يتسنى عملياً من خلال مفهوم البنية التي يأتي المعنى لاحقاً لها، لأنه لكي يكون المعنى ويوجد لا بد أن يُنطق به أو يُكتب"[٢٦] ونصوص روايات الأجيال تنوعت في رؤيتها لعلاقة الرجل بالمرأة، فمنها من صور جسد المرأة على أنه استراحة محارب بالنسبة للرجل، ومنها من منح المرأة صفات الرجولة لتتسيد الموقف في الرواية، ومنها من سلط الضوء على المجتمع الشرقي الذكوري واستبداد الرجل وتهوين المرأة، في حين ارتقى آخر بتلك العلاقة إلى حدود المثالية، وهكذا يرخي كل نص بحقيقته الواجدة لأفكار كاتبها، فيما يحيل النص بغموضه إلى ذلك القارئ ليتابع بحثه عن حقيقة طالما غابت تاركة دالّها الفضفاض.

ت. الريف / المدينة:

فرضت الحياة على الريف . نتيجة العزلة . التطور البطيء، فباتت مرتبطة قدَرياً بالمدينة ذات التطور السريع. وفي الرواية لم يتسع الريف ليحتضن رواية بأكملها إلا كانت نزوعات مدنية تتقاسم الحياة الروائية معه، وهذا كان نصيب رواية الأجيال أيضاً. فالإقطاعي لم يكن وطنياً إنما كان ناهباً، همه أن يأتي إلى الريف في أوقات المواسم لينال حصته الهائلة ويرحل بعدها ميمماً شطر المدينة يتمتع بهذا الجني الظالم. فارتسمت صورة المدينة في أذهان الريفيين على الظلم والنهب. وعلى الرغم من ذلك فقد صورت الروايات التكامل بين الريف والمدينة ولم تصور الصراع بينهما فكيف بدت هذه الصورة في روايات الأجيال؟

وصف *نبيل سليمان* ما سبّبه الحراك الاجتماعي من الريف نحو المدينة "بالسرطنة" في دراسته لرواية "حسيبة" لخيري الذهبي، ورأى أن هذا الحراك قد أدى إلى تبدلات كثيرة في الحياة العملية (السياسية والاقتصادية والفكرية)، لكنه على صعيد الكتابة أجمل المواقف بأربع:

" أ. الموقف الشمولي التاريخي: الذي يرى التطور الطارئ على المدينة بسلبه وإيجابه، مما يشترك فيه من يكتبون ويكتبن من المدينة نفسها ومن القادمين الذين يظلون (جدداً) حتى لو انقضت على قدومهم عهود.

ب. الموقف السلبي لبعض القادمين والذي يختلط فيه الانبهار بالاستحواذ بالعدائية بالندب على الماضي الريفي.

ت. الموقف السياحي: الذي يشترك فيه أولاء مع آخرين من أبناء المدينة.

ث. موقف البكاء على الأطلال الذي تختلط فيه التسجيلية بالتقديس والعدائية الصارخة أو المتسترة للقادمين الجدد"[٢٧].

---

[٢٥]. المصدر نفسه: ص١٣٧.

[٢٦]. الغذامي، عبد الله: "المشاكلة والاختلاف ـ قراءة في النظرية النقدية العربية، وبحث في الشبيه المختلف". المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء / بيروت، ط١ ـ ١٩٩٤، ص٢٦.

[٢٧]. سليمان، نبيل: "الرواية العربية ـ رسوم وقراءات". مركز الحضارة العربية ـ بيروت، ط١ ـ ١٩٩٩. ص١٥٩.

بالانطلاق من النص السابق يجد المرء تشابهاً في المواقف؛ فالموقف الشمولي التاريخي والموقف السياحي متشابهان من حيث إن الكاتب المدني والريفي مشتركان في كتابتيهما، وإن لم يوضح الكاتب الموقف السياحي بشكل صريح. وبالتوازي معهما فإن الموقف السلبي يكاد يكون مكرراً عند الناقد، فالموقف الأخير (البكاء على الأطلال) هو النسخة المكررة من الموقف الثاني السلبي، وإن كان هناك اختلاف بينهما فيرى المرء أنه يهمل لصغره، إذ إن الاشتراك يكون في الندب على الماضي الطللي الريفي وتقديسه، والعدائية الواضحة أو المتسترة نحو المدينة. ويبدو أن الكتابة تختلف بين كتاب المدينة وكتاب الريف، "وإذا كانت الروايات الريفية قد أشارت إلى عذابات المهاجرين وتدني مستوى الأعمال التي مارسوها في المدينة، فإنها لم تكن قادرة . بحكم كونها روايات ريفية . على الانصراف إلى تصوير البعد الريفي . المديني كاملاً. وفي المقابل كانت الروايات المدنية تسمح بذلك"[٢٨]. ولعل ذلك يعود إلى عوامل أُدرجت في آراء كثيرة أثيرت حول هذا الموضوع، فقد يتوقف الأمر على "طبيعة هذا الريف، ومستواه الفكري والاجتماعي، "والرسالة" التي يحملها أو "يحلمها" إلى المدينة، والعناصر التي يلتقي بها ومبناها الفكري ونشاطها العملي إلخ"[٢٩]. لكن من يمتلك الحق الكامل في ذلك برأيي هو النص، وسواء أكانت الرواية ريفية أم مدنية، وسواء أكان كاتبها من الريف أم من المدينة فإن نصها هو الذي يقرر في نهاية المطاف أسس تلك العلاقات، حين تتموضع تلك العلاقات في نسيج العلاقات النصية.

ويعزز *عبد الله أبو هيف* ما قرره *سمر روحي الفيصل* من أن *نبيل سليمان* في "مدارات الشرق" كان ريفياً بامتياز، وينظر إلى "مدارات الشرق" على أنها "عرض تاريخي جغرافي يحيط بالريف أساساً، وبالمدينة بفئات المجتمع الريفي والمدني، وفي حالات تطور هذا المجتمع"[٣٠]. إنه يجعل من الريف الأساس الذي بنى عليه سليمان الرواية.

وبينما يقرّ *محمد صابر العبيد وسوسن البياتي* بالحضور القوي للريف والمدينة في "مدارات الشرق"، يؤكدان أن كليهما لا يمكن أن يكون منفصلاً بذاته عن المكونات الروائية الأخرى، "فالمدينة في النص الروائي تظهر بصورتها السردية، مرتبطة بالعناصر الأخرى، فلا أثر لوجود مدينة / بوصفها إطاراً مكانياً خاصاً، من دون وجود شخصيات تتفاعل في زمان معين وتتعرض لحوادث معينة في سياق حكائي تجسد منظور الراوي"[٣١] "وفي وصف الريف يلجأ الراوي إلى إقامة علاقات قوية بين الريف / مكاناً وبين إقطاعيي هذا الريف / أشخاصاً، فالرؤية السردية في مثل هذا الوصف تنطلق من أن ثمة علاقة بين الاثنين، والريف لا يصلح أن يظهر منفرداً منعزلاً عمن يتولون إدارة شؤونه"[٣٢]. من الواضح أن الباحثَين يتعاملان مع العلاقة بين الريف والمدينة في إطار المكان الروائي، فالمدينة والريف جزء من الفضاء الذي يشكل مكوناً من المكونات الروائية للنص، ويقود ذلك إلى العلاقات داخل النسيج الروائي مع المكونات الأخرى ولاسيما الشخصيات الروائية والمنظور السردي.

ويذهب *مفيد نجم* إلى أن العلاقة بين الريف والمدينة ترسم المكان الروائي في "مدارات الشرق" مؤيداً ما ذهب إليه سابقاه هنا، ولكن *نجم* يحكم على هذه الثنائية بالضدية في حين كان قد ذهب النقاد مذهب التكامل في ذلك، وله في ذلك مذاهب: إذ "تتجلى هذه الثنائية الضدية للمكان في الرواية من خلال أمكنة الثبات، وأمكنة التنقل.

---

[٢٨]. الفيصل، سمر روحي: "ملامح في الرواية السورية". اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق، ط١ ـ ١٩٧٩، ص٢٤١.

[٢٩]. عبد الله، محمد حسن: "الريف في الرواية العربية". سلسلة عالم المعرفة ـ العدد ١٤٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت، ص١٨١ ـ ١٨٢.

[٣٠]. أبو هيف، عبد الله: "الجنس الحائر ـ أزمة الذات في الرواية العربية". ص١٠٧.

[٣١]. العبيد، محمد صابر والبياتي، سوسن: "جماليات التشكيل الروائي". ص٢٥٤.

[٣٢]. المصدر نفسه: ص٢٥٦.

إذ تمثل أمكنة الريف أمكنة تنقل دائمة"[٣٣]. هذا يعني أن المدينة كانت تعيش حياة الاستقرار، فيما كان فضاؤها، في رأيه، يدل على الاختراق والتحول الذي تتعهده شخصيات الرواية مدينة وريفاً، أما الريف فيبقى أسير العلاقات الإقطاعية القاسية الواحدة. ضمن تجنيس العلاقات يتمتع الريف بالذكورة لفظياً والمدينة بالأنوثة، لكن العكس تماماً يحدث في واقع النص الروائي، إذ تدفع الحمولات السردية أشخاص الرواية إلى الهجرة من الريف إلى المدينة بوصفها المستقر ومحل الكبار والإقطاعيين، فيما يكون الريف موطن الفلاحين والعبيد . إذا جاز القول . والريف مكان العلاقات الجبرية غير المتبدلة، أما المدينة فموطن التحول المستمر، وإذا افترض المرء أن التأثيرات متبادلة بين المكان والشخصيات فسيشكل التكامل أساساً للعلاقة بين الريف والمدينة وليس الضدية، فالإقطاعي المدني ينال بركته المالية من الريف، وأبناء الريف يجدون المدينة موطن الاستقرار الجديد ولا يفكرون بالعودة بعدها إلى الريف، وليس الريف، بوصفه مكاناً، بمعزل عن التطورات والتحولات التي تنال المدينة، ولكن سرعة التغير قد تفصل بينهما، وعلى هذا فالتبادل حاصل بين الريف والمدينة، وعلاقتهما ضمن نص الرواية علاقة تبادل وتكامل.

غير جائز للناقد أن ينطلق في نقده للنص الروائي من رؤيته هو، إن للنص الكلمة الكبرى التي يقولها، والعلاقة بين الريف والمدينة تنخرط في الإطار المكاني للنص الروائي، ويبتعد عن الصواب كل من يحاول اجتراح هذه العلاقة من النص الروائي وإقحام التصور العام أو التصور المسبق في نص يمتلك في سرده كل مقومات وأبعاد الحكاية الخاصة والخصوصية الحكائية. وكل الأشكال الثقافية "الأنا / الآخر، المرأة / الرجل، الريف / المدينة" هي أنساق تُبرز في تموضعها داخل النسيج الروائي رؤية النص الروائي ذاته.

خاتمة:

أولاً: في الواقع والتاريخ قد تكون الأنا عند العربي تكونت مع الآخر الغربي قبل دخول المستعمر الأراضي العربية، لكنّ تجليها في الرواية بدا واضحاً بعد التصادم المباشر مع الغرب إثر احتلاله واستعماره الأراضي العربية، ولا سيما أن الرواية العربية تعاملت بشكل مباشر مع النضال العربي ضد هذا المستعمر، أضف إلى ذلك أن كليهما معتمل في فضاء سردي واحد هو فضاء الرواية التخييلي، ومن ثم فإن المكان الروائي يصبح فضاءً مماسياً مباشراً بين الأنا والآخر، ويغدو، تلقائياً، الأنا آخر بالنسبة إلى الآخر الذي يتحول إلى أنا. وبوصف الرواية نصاً سردياً بات من الطبيعي أن يكون هناك بعد آخر لهذه العلاقة بين أنا العلامة اللغوية النصية والآخر المتلقي مفكك هذه العلامة. وهنا تنال العلاقة تكويناً آخر، فالعلامة اللغوية ثابتة، أقصد الدال، فيما يتزحلق المدلول ويتبدل تبعاً للبيئة الثقافية والفكرية للمتلقي الآخر.

ثانياً: ظهرت العلاقة بين الرجل والمرأة بنسق صرّح النقاد العرب عنه في رواية الأجيال، يحمل صور المرأة الآسرة للرجل والمؤنسة لوحشته حيناً، ولكنها تبدو حيناً آخر مانحةً نفسها له، فيتصورها جسداً مباحاً، غير أن هذه العلاقة تسهم في التطور الاجتماعي الذي تنهض به الروايات نسقاً.

ثالثاً: ظهرت العلاقة بين الريف والمدينة علاقة تكامل في رواية الأجيال عند بعض النقاد، لكنها . عند بعضهم الآخر . أظهرت المدينة على أنها الحلم القاتل للريف، في إطارٍ مكانيٍّ أُشبع بمضمراتٍ أخرى تنازعته الطبقات الاجتماعية، وتقاسمته الأطماع البشرية.

[٣٣]. نجم، مفيد: "دلالات المكان في رباعية (مدارات الشرق)". مجموعة "مجنون المجاز" أو "نبيل سليمان مبدعاً وناقداً"، دار الحوار ـ اللاذقية، ط١، ٢٠٠٨، ص٢٠٤.

وخلاصة القول: إن النقد العربي لرواية الأجيال في سورية اشتغل في بداياته على تلك الرواية بوصفها تؤرخ لحقبة أجيال تعاقبت بحضورها في الزمن، لكن محمولات الثقافة النقدية الجديدة . ما أبدعته، وما تبدعه دائماً . أرهصت لنقدٍ ثقافيٍّ جديدٍ استثمر الأدوات الإجرائية في تحليل رواية الأجيال، التي تقدمت بدورها لتكون ميداناً خصباً لتجلية أسرار التخييل الروائي، والوقوف عند عتبة الأنساق الثقافية الفاعلة فيه.

المصادر والمراجع:

١. أبو هيف، عبد الله: *"الجنس الحائر، أزمة الذات في الرواية العربية"*. رياض الريس للكتب والنشر . بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

٢. باروت، محمد جمال: *"رواية البيئة الشامية الضائعة والمستعادة"*. سلسلة أدباء مكرمون (٢٨) . الروائي خيري الذهبي، اتحاد الكتاب العرب . دمشق، ط١، ٢٠٠٦.

٣. باروت، محمد جمال وعيد، عبد الرزاق: *"الرواية والتاريخ . دراسة في مدارات الشرق"*. دار الحوار . اللاذقية، ط١ . ١٩٩١.

٤. الخطيب، حسام: *"سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية"*. اتحاد الكتاب العرب . دمشق، ط١، ١٩٧٤.

٥. الربيعي، فاضل: *"صورة الغرب (المؤنث) في الرواية العربية"*. سلسلة أدباء مكرمون (٢٨) . الروائي خيري الذهبي، اتحاد الكتاب العرب . دمشق، ط١، ٢٠٠٦.

٦. سليمان، نبيل: *"أسرار التخييل الروائي"*. اتحاد الكتاب العرب . دمشق، ط١، ٢٠٠٥.

٧. سليمان، نبيل: *"جماليات وشواغل روائية"*. اتحاد الكتاب العرب . دمشق، ط١، ٢٠٠٣.

٨. سليمان، نبيل: *"الرواية العربية . رسوم وقراءات"*. مركز الحضارة العربية . بيروت، ط١ . ١٩٩٩.

٩. شبانة، عمر: *"أعاصير في بلاد الشام . رواية تاريخية وثائقية عن الحياة السياسية والاجتماعية"*. سلسلة أدباء مكرمون (٢١). الدكتورة ناديا خوست، اتحاد الكتاب العرب . دمشق، ط١ . ٢٠٠٥.

١٠. شبانة، عمر: *"بين الواقع والأسطورة بسقط الحاضر". سلسلة أدباء مكرمون (٢٨)* . الروائي خيري الذهبي، اتحاد الكتاب العرب . دمشق، ط١، ٢٠٠٦.

١١. الصالح، نضال: *"من التخييل إلى التأويل . دراسات في الرواية العربية ونقدها"*. نون ٤ للنشر والطباعة . حلب، ط١ .٢٠٠٧.

١٢. طرابيشي، جورج: *"شرق وغرب، رجولة وأنوثة . دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية"*. دار الطليعة . بيروت، ط٤، ١٩٩٧.

١٣. عبد الله، محمد حسن: *"الريف في الرواية العربية"*. سلسلة عالم المعرفة . العدد ١٤٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت.

١٤. عبود، عبده: *"الأدب المقارن . مدخل نظري ودراسات تطبيقية"*. منشورات جامعة البعث . كلية الآداب والعلوم الإنسانية، حمص، ط١ . ١٩٩١.

١٥. عبيدات، زهير محمود: *"رواية الأجيال في السرد الروائي العربي الحديث"*. دار أزمنة . عمّان، ط١. ٢٠١٠.

١٦. العبيد، محمد صابر والبياتي، سوسن: "*جماليات التشكيل الروائي*". دار الحوار . اللاذقية، ط١، ٢٠٠٨.

١٧. عمار، عبد الرحمن: "*بنية التشابه بين المؤلف وشخصياته الروائية*". اتحاد الكتاب العرب . دمشق، ط١ . ٢٠٠٧.

١٨. الغذامي، عبد الله: "*المرأة واللغة*" . *المركز الثقافي العربي* . بيروت / الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٦.

١٩. الغذامي، عبد الله: "*المشاكلة والاختلاف . قراءة في النظرية النقدية العربية*، وبحث في الشبيه المختلف". المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء / بيروت، ط١ . ١٩٩٤.

٢٠. الغذامي، عبد الله: "النقد الثقافي . *قراءة في الأنساق الثقافية العربية*". المركز الثقافي العربي، بيروت . الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٥.

٢١. فخري، أسعد: "*أنين السرو . تجليات الآخر الأرمني في الرواية العربية*". دار الحوار . اللاذقية، ونادي الشبيبة السورية . حلب، ط١، ١٩٩٥.

٢٢. فريحات، مريم جبر: "*التجليات الملحمية في رواية الأجيال العربية*". وزارة الثقافة، عمّان، ط١ . ٢٠٠٥.

٢٣. الفيصل، سمر روحي: "*ملامح في الرواية السورية*". اتحاد الكتاب العرب . دمشق، ط١ . ١٩٧٩.

٢٤. قرانيا، محمد: "*الستائر المخملية ملامح الأنثى في الرواية السورية حتى عام* ٢٠٠٠". اتحاد الكتاب العرب . دمشق، ط١، ٢٠٠٤.

٢٥. محياوي، وئام والعرجاني، خلود: "*الأنساق الثقافية في ديوان المتغابي لعثمان لوصيف*". رسالة ماجستير بإشراف الدكتور عبد القادر رحيم، جامعة محمد حيضر بسكرة، ٢٠٢٢ . ٢٠٢٣.

٢٦. الموسى، خليل: "ملامح الرواية العربية في سورية". اتحاد الكتاب العرب . دمشق، ط١، ٢٠٠٦.

٢٧. نجم، مفيد: "*دلالات المكان في رباعية (مدارات الشرق)*". مجموعة "مجنون المجاز" أو "نبيل سليمان مبدعاً وناقداً"، دار الحوار . اللاذقية، ط١، ٢٠٠٨.